الفصل السادس

الذاكرة مرتكزا بنائيا في رواية الرويس

الفصل السادس

الذاكرة مرتكزا بنائيا في رواية الرويس

يستدعي الكاتب السعودي سعيد السريحي في روايته (الرويس)[1] الذاكرة لتكون محورا مركزيا يبنى عليه فعل السرد وثيمة أساسية في توجيه الأحداث وتصاعدها وفي رسم الشخصيات وصياغتها وفي استدعاء الزمان والمكان كعنصرين مكملين للبناء السردي.

ويمكن عدُّ رواية (الرويس) من نمط الرواية القصيرة التي اعتمدت الاختزال في التشكيل اللغوي وكانت ذات نزعة سيرية يتم فيها التركيز على الفعل الذاكراتي الذي يجمع في متنه تمازج الشعري بالنثري من خلال مقاطع سردية طويلة بنيت بأكملها على صياغة شعرية هي اقرب إلى قصيدة النثر[2] فضلا عن تداخل الفصيح بالعامي سواء في الحوارات الخارجية بأنواعها أو في المقاطع الوصفية والمشاهد السردية.

ولا غرو أن يتضح التركيز على الفعل الذاكراتي بدءاً من الإهداء" **إلى الصديقين زكي سالم دريب وسليمان معتوق مناع**" مرورا بالتناصات مع كثير من الأمثال الشعبية والحكايات المتوارثة مما هو سائد في المخيلة السيرية لأهل البلاد ومما تناقلته الذاكرة الشفاهية من موروث ثقافي عن عادات وتقاليد اعتاد أهل الرويس على القيام بها سواء في إحساسهم بالحسد والخوف ومداهمة القحط والجوع عليهم أو في كيفية مواجهة بعض الظواهر الطبيعية ومعالجة بعض الأمراض المتوطنة والشفاء منها..الخ

ويتم تدعيم بعض الأحداث في الرواية بوقائع تاريخية حدثت بالفعل وسجلها التاريخ المعاصر والحديث.. ولان الذاكرة تستدعي ما هو واقعي لذلك تضمنت بعض المشاهد السردية صورا واقعية لا تخلو من بعض القسوة كمشهد انفراط أمعاء الزوج أمام زوجته وطفليه" **هوى على عتبة البيت فانفرطت أمعاؤه التي كان يلفها في طرف إزاره صرخت زوجته وحالت بين طفليها وهول ما رأت ونادى مناد في طرف القرية التي كانت حاضنة البحر ان قد ذبح ولد إبراهيم شيخ القرية**"[3]

---

(1) الرويس رواية، سعيد السريحي، دار جداول للنشر والترجمة والتوزيع، لبنان، طبعة أولى، 2013

(2) ينظر: م. ن/ 39-45.

(3) م. ن/65

ومشهد نزق الوالد حين رأى الولد يخفق في حمل دلة القهوة وتقديمها بالصورة الصحيحة للضيف لذلك اخذ الوالد يد الولد وغرزها في الجمر وقد ظل يتذكر ذلك الفعل وبعد مرور خمسين عاما ما زالت آثاره ظاهرة للعيان" **كنت في عمره لمن مديت الفنجان بيدي اليسار صرخ أبوي رحمة الله عليه: حط الدلة والفناجيل حطيتها قال لي: هات يدك مديت له يدي اليمين..وما دريت إلا وهو غارزها في الجمر**"[1]

وإذا كانت الذاكرة على أنواع فإنها هنا أقرب إلى الذاكرة الجمعية التي تحكي قصة بطولة جماعية يمثلها أبناء مدينة واحدة صنعها أهلها بدمائهم وعرقهم حتى صارت جزءا من تاريخهم وحاضرهم ومستقبلهم وما هذه المدينة إلا الرويس التي اتخذها الكاتب عنوانا رئيسا ليكون المكان هو العنصر البنائي الأساس الذي تشتغل عليه الذاكرة..

وقد وظف الزمن توظيفا استرجاعيا لزمن ماض بحكايات متعددة ومن دون تخصيص شخصية محورية لدور البطولة بل ظلت البطولة جماعية..

وتوظيف الزمن الماضي إنما تم على وفق بناء تتابعي للأحداث ليس فيه قفز على الأحداث أو تناوب أو تنضيد ولم تخل الرواية من حشر بعض العبارات الإنشائية في مسار السرد كما في هذا المقطع" **غربة هي أقسى عليهم من الموت لو أنهم قلبوا أعينهم حين يقبرون فلن يروا فيمن حولهم أبا يترقب وصولهم وابنا يتلهفون لرؤيته**"[2] كما كان للمكان وجود مهم متمثلا بالتلاقي حينا والتضاد أحيانا بين البحر وجدة والرويس واليمن ومكة.

وتتم عملية السرد باستعمال أسلوب السرد الموضوعي إذ الراوي في الأعم الأغلب هو عليم أو كلي العلم يسرد بضمير الغائب وهو عارف ببواطن الشخصيات وأسرارها" **مالت الشمس للمغيب..اسند ظهره للسارية وراح يغني..حاول ان يتذكر بقية الأبيات فلم تسعفه الذاكرة**" [3]

ويتحول الراوي العليم إلى راو مقتحم مشارك بضمير (نا)المتكلمين ليغدو أحد فواعل المروي ومفتتح الرواية إنما جاء على لسان راو مشارك" **سقطنا بين مرحلتين سقطنا بين بداوة تموت وحضارة لم تولد بعد هكذا نحن أبناء الرويس**"[4]

وينتهج الكاتب منهج الواقعية النقدية وهو يعالج قضايا التصارع الثقافي بين البداوة والحضارة ومسألة التمايز الإنساني بين السادة والعبيد وعلائقية الحياة بالموت

---

(1) م. ن/66
(2) م. ن/57
(3) م. ن/67
(4) م. ن/7

ولقد اتخذت بعض الحوارات الخارجية صيغة التعدد اللغوي باستعمال اللهجة السعودية والتناص مع الشعر النبطي.[1]

ويؤدي الاسترجاع بنوعيه الكلي والجزئي دورا مهما في تصاعد الأحداث وتعقدها عبر انثيال الذاكرة عن الآباء والأجداد الذين أسسوا الرويس وسكنوا فيه بعد أن قدموا إليه من مناطق أخرى واستوطنوا فيه حتى صاروا جزءا منه.

ويتم توظيف الحوار الخارجي في الرواية بأنواعه الحوار المباشر الحر والحوار المباشر غير الحر والحوار غير المباشر وبنسبة أكثر من توظيف المونولوجات الداخلية ولعل السبب وراء ذلك يعود إلى ان اكتراث الراوي مشاركا أو عليما بشخصياته كان أقل مدى من اهتمامه بالأحداث في انثيالها عن الذاكرة الجمعية.

وإذا كانت المدينة هي المركز والرويس هو الهامش في المعطى الواقعي إلا ان ذلك إنما ينقلب إلى الضد على صعيد استدعاء الذاكرة ليصبح الرويس هو المركز الذي نأى عن الساحل والقرية والصحراء حتى صار شيئا آخر ليس بمدينة ولا قرية ولا ساحل ولا صحراء انه رمز لمكان مثالي رسمته الذاكرة لواقع غابر يتكاتف فيه أهله في المصاعب التي مروا بها حتى ما عادوا شبيهين بغيرهم"**أشباه بدو وأشباه حضر، نتأرجح بين هؤلاء وهؤلاء**"[2]

ولهذا ما كان أهل الرويس يرون أنفسهم هامشيين؛ بل كانوا يجدون أنهم يفترقون عن البدو لأنهم لم يسكنوا الصحراء وهم أيضا ليسوا حضرا انتموا إلى المدينة وتجاوزوا البداوة لكي يكون حالهم كحال أهل جدة أو اليمن أو مكة.

وما بين هذا التفاوت في الرؤية الانطولوجية للمكان/ الرويس يتعاظم الشعور بالاغتراب في عدم الانتساب للمدينة من جهة وعدم الانعتاق من البداوة من جهة أخرى.

وتقتحم فكرة الأجيال الذاكرة قاسمة عالم الرويس إلى ثلاثة أقسام القسم الأول يمثله جيل الأجداد الذين تجسد دورهم في قص الحكايات وإسداء النصح وتقديم الخبرات ويمثل القسم الثاني جيل الآباء الذين يكدحون لكسب لقمة العيش، وأما القسم الثالث فهو جيل الأحفاد الذين صنعوا مستقبلهم بالذهاب إلى المدرسة لأجل تلقي العلم والتطلع نحو المدنية.

وعلى هذا الجيل وقع الجزء الأكبر من التصادم القلق بين الانشداد إلى الماضي بتقاليده وعفويته وبساطته وبين الاندماج بعالم المدينة والتطلع للتقدم والتأثر بالحضارة بكل مظاهرها وأشكالها وصاروا الأكثر عرضة لهذا التضاد بين المدينة والقرية

---

(1) م. ن/48

(2) م. ن/7

والبداوة والحضارة، ولقد ظل هؤلاء الأبناء يكابدون هذا الصراع كما ألقيت على عاتقهم مهمة الإسهام في تقدم الرويس وتمدنه.

والذاكرة الجمعية هي التي جعلت الرواية تجبيلية وقد صنعها آباء الرويس وأجداده وأحفاده فتغنى الأجداد بقصة إنشاء الرويس واقتخروا وهم يتذكرون كيف جعلوا من الرويس مكانا مناسبا للعيش أولا لقربه من البحر الذي لا يرحم وثانيا لأنهم وجدوا حياتهم فيه فواجهوا الشح والجوع والسغب..

وتحمل ذاكرة الآباء قصصا عن الرويس الذي تحدى المدينة ولم يندمج في عالمها الغريب والمخيف ولهذا ظلت المدنية غريبة عنهم وهذا ما جعلهم في حيرة إزاء تكوين هويتهم الإنسانية هل هي هوية حضرية أم هوية بدوية؟!!، ومن ثم وقعوا في موضع الاصطدام بين بداوة رأوها جزءا لا يتجزأ من حالهم وبين مدنية رأوها ليست من حالهم فاستعصموا بقراهم النائية" **انتهينا إلى أن نكون بدوا في عيون الحضر وحضرا في عيون البدوولم نكن نعرف من نحن**"[1]

ومن هنا بدا البحث عن الهوية كأحد هموم الذاكرة الجمعية التي تتشال ذاكراتيا بلسانيين أحدهما غائب والآخر حاضر في صيغة ضمير المتكلمين.

وجدير بالذكر أن الرواية العربية عموما كانت قد أولت موضوعة الهوية في علاقة الإنسان العربي بالمكان والانتماء أو عدم الانتماء إليه اهتماما كبيرا وقد عالجت قصص كبار الروائيين العرب هذا الموضوع بطرق مختلفة.

وللهوية أثر لا يخفى في تذكير أهل الرويس بماض مشرق صنعه أجدادهم في كل جزء من أجزاء المكان فالأكواخ وبيوت الطين والحجر والقبور والمدافن التي صنعوها إنما تدلل على أن الموت يصنع الحياة.. أما البحر فلم يكن بالنسبة لهم مصدر ثقة ولذلك لم يكونوا على وفاق دائم معه ولم ينتسبوا في هويتهم له وما ذلك إلا لكونه مصدر غدر وعدم اطمئنان" **كأنما غافلهم البحر فاختبأ في رحالهم يوم رآهم يهمون بالرحيل عنه أو كأنما حملوه معهم بينه وبينهم نسب وميثاق يعرفونه كما يعرفون أنفسهم ينادونه بأسماء شعابه وخلجانه وقواقعه وحيتانه..وينادیهم بأسمائهم واحدا واحدا يستدرجهم حتى إذا ما اطمأنوا إليه انقلب عليهم يأخذ أرواح بعض منهم ليعطي بعضا منهم ما يعيش به**"[2]فالبحر عدو وصديق وهو يمد الصيادين بالحياة والموت، بعكس الرويس الذي اطمأنوا له ووجدوا فيه الملاذ والفرج فاقتخروا بالانتساب إليه.

---

(1) م. ن/9

(2) م. ن/11

ولأن الذاكرة تُستدعى بشكل جماعي غيابا أو تكلما؛ فإن وجود الشخصية الرئيسة أو البطلة قد غاب عن الرواية وهذا لا يعني عدم وجود شخصيات أدت دورا مهما في تواتر السرد وتصاعده ولاسيما الشخصيات النسائية.

وأول ما تطالعنا به الرواية من تلك الشخصيات أم عوض المجنونة وحامدة التي كسر الموت ظهرها وعابدة التي ضمت جثة طفلها إلى صدرها حتى وارته في جزيرة نائية وصلوح وأخت بن سعيد المجنونة وسعدى.

أما الشخصيات الذكورية فأهمها شخصية محمد أحمد الذي يمثل جيل الأبناء من الذين كان في تلمذتهم المدرسية دور في استرجاع حكايات الأجداد واستلهام قصص الآباء عن الرويس، كما يكون للشخصيات الذكورية مثل بن سعيد وعبد الحميد ومنصور وساعد ومبيريك وسعد الله وفوزان دور مهم إذ عن طريقهم تتم عملية استذكار لبعض عادات العرب التي كانوا يمارسونها في بوادي الرويس بسحنتهم الخاصة وكيف كان أهل الرويس يلتقون بصيادي السمك الذين يأتون مساء إلى شاطئ جدة متعجبين من هواء الرويس، فيتبادلون الشعر وحوارات باللهجة السعودية المحلية.

والرويس هو حلقة الوصل بين البر والبحر أرضا وماء ولان الرويس حفنة من الطين والشمس لذلك كان أرض الوئام والتصالح الإنساني الذي فيه تتكافأ النفوس وتتساوى في الواجبات والعلاقات والعادات التي اعتاد أهل الرويس إتباعها في أفراحهم وأتراحهم وفي تأدية طقوسهم في حالات الموت والمرض والفاقة.

ولما ضاقت بهم أسباب العيش وانغلقت أبواب الرزق قرروا أن يرتحلوا من الرويس إلى الأودية والسواحل، فتفرقوا في الأرض ولما عادت الأمور وفُك الحصار عاد الأهل يبنون ما تهدم من بيوت الرويس وقد أطلقوا عليه(نسيان) كأنهم بذلك يتعوذون من اندثاره ويناوون بذاكرتهم عن أن تناساه" **ولم تمض بضع سنوات حتى عرف الرويس بنسيان قطعة من أرض ينبع..أفق يتباهى بنخله وسدره بترابه ومائه وسمائه ويتباهى به أهل الرويس. منه مطعمهم ان شاؤوا رطبا جنيا ومنه مشربهم حين يفيض ماؤه عن حاجة الزرع فيه**"[1]

وظلت القبور جزءا من ذاكرة أهل الرويس التي تشدهم إلى المكان وتمنعهم من مغادرته والحكايات عن القبور وعجائبها شكل من أشكال الهوية في إثبات الانتماء للمكان ودفعا للموت والنسيان..

وتحتل الأشجار حيزا مهما في ذاكرة المكان فقد كانوا ينظرون لها كأنها احد أفراد العائلة كشجرة السدرة التي نبتت بجانب البئر وكان فيها شفاء للناس بأمر الله. وهذا فوزان يتذكر كيف أن جدته" **وضعت يدها على جذع النخلة السابعة هذي النخلة**

---

(1) م. ن/50

لك وصيتي لك عطية حي لحي يوم أموت وتشوفها تفتكرني وتقرأ لي الفاتحة، سمعت"[1]ولهذا لما ماتت النخلة اخذ جذعها وجعله في البيت..!!

ولم يكن أهل الرويس ينظرون إلى خدمهم نظرة دونية كعبيد؛ بل كانوا يتباهون بهم كتباهيهم بأبنائهم وبعدد نخيلهم وبقواربهم وما ذلك إلا لان العلاقة بينهم ليست علاقة استعباد بل هي علاقة انتماء وإخلاص" **يسميهم الناس عبيدا لهم ولا يرون هم فيهم غير أنهم منهم لكبيرهم مقام الوالد وللصغير مكانة الابن لم تكن تربطهم بهم علاقة استعباد بل حالة ولاء وانتماء لا تنفصل عراه"**[2]

ولهذا تساوى في الرويس العبد والسيد والأبيض والأسود والحر والرق وقد استدعت الذاكرة الجمعية حادثة الغلامين العبدين ساعد ومبيريك وكذلك استذكرت كيف اتخذ حمد من العبد سعد الله أخا لابنه محمد ومن ثم ظلا هكذا حتى ماتا وصار قبرهما بجنب بعض.

ويظل الرويس في منأى عن غزو الحضارة حتى يتحول إلى مركز استقطاب أهل الأماكن الأخرى لاسيما جدة التي أخذت تزحف قصورها باتجاه أكواخ الفقراء وبيوت اليتامى في الرويس.

وتتولى الذاكرة الجمعية توصيل قساوة ذلك الإحساس وشدة وقعه على أهل الرويس" **كان آباؤنا يتميزون غيظا وهم يرون نوافذ هذه القصور تدخل بيوتهم بدون استئذان وكانت أمهاتنا يعشن ما يشبه الفضيحة، هتكت المدنية ستر بيوتنا..كانت الرويس قبلهم حمى فأصبحت بعد انتقالهم إليها حمى مستباحا"**[3]

وبذلك بدأت مرحلة ذواء الرويس وذوبانه في المدينة لتنوي معه ذاكرة الأهل" **وتحولت حكايات الآباء عن الأجداد إلى كوابيس وأصبحنا نرى آباءنا يستيقظون منكسرين صباحا"** [4]

أما الأبناء/ الأحفاد فإنهم كانوا يرون في هذا الزحف مدنيةً وتقدما حتى المدرسة التي خشوا ان تكون قصرا آخر من قصور الغزاة الأثرياء صاروا يطمأنون لها ويرون فيها بيتهم الثاني كما وجدوا المعلمين آباء ثانيين لهم وحكاياتهم تختلف عن حكايات الآباء الأولين.

ويكون في خضم شعورهم بالاندماج الحضاري شعور متوار بالانفصال عن الأجداد والتنصل عن هوية المكان وقد حملوا جنازة الرويس إلى مثواه الأخير، وهذا ما ينقله الراوي بضمير نا المتكلمين قائلا:" **بعيدا عن أبنائنا المترنحين بين القرية**

---

(1) م. ن/51
(2) م. ن/37
(3) م. ن/74
(4) م. ن/75

والمدينة بعيدا عن أجدادنا الذين تدثروا ببداوتهم وماتوا"[1]لتكون خاتمة الرواية ذات نهاية مأساوية تعلن أن المكان وإن مات فإن الذاكرة تبقى حية.

دليل الكاتبة

أ.د. نادية هناوي

- دكتوراه في فلسفة اللغة العربية وآدابها/جامعة بغداد/ عام 2002.
- التخصص/ النقد الادبي الحديث.
- حصلت على لقب الأستاذية عام 2012.
- عضو الاتحاد العام للادباء والكتاب في العراق.
- اشرفت على عدد من رسائل الماجستير واطاريح الدكتوراه، وناقشت عددا منها في جامعات عراقية مختلفة .
- شاركت في اكثر من اربعين مؤتمرا علميا في الجامعات داخل العراق وخارجه.
- نشرت اكثر من خمسة واربعين بحثا علميا محكما في المجلات الاكاديمية العراقية والعربية.
- نشرت عشرات المقالات في الصحف العراقية.
- اختيرت محكما في اكثر من مسابقة ادبية.
- فازت بجائزة نازك الملائكة للابداع النسوي في حقل النقد الروائي،الدورة السابعة 2014.

الكتب المنشورة:

1. القارئ في الخطاب النقدي العربي المعاصر نجيب محفوظ انموذجا، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد،طبعة ثانية، 2014.
2. مقاربات في تجنيس الشعر ونقد التفاعلية، دار الفراهيدي للنشر والتوزيع، بغداد، طبعة أولى 2010.
3. تعدد القراءات الشعرية في النقد العربي القديم حتى نهاية القرن السابع للهجرة، المركز العلمي العراقي، بغداد، طبعة أولى، 2011.
4. السرد النسائي القصير مقاربة نقدية في مجموعتين قصصيتين، الموسوعة الثقافية، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، طبعة أولى 2014.
5. تمظهرات النقد الثقافي وتمفصلاته قراءات تطبيقية، دار تموز للطباعة والنشر، دمشق، سوريا،2015.

---

(1) م. ن/79.

6. منازع التجريب السردي في روايات جهاد مجيد، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، طبعة اولى، 2015.
7. رؤى نقدية الشعر من بنية التحليل الى بنى التأويل، دار الفراهيدي للنشر والتوزيع، بغداد، طبعة اولى، 2016.

عنوان العمل الحالي

قسم اللغة العربية/ كلية التربية/ الجامعة المستنصرية/ العراق.
البريد الالكتروني/nada2007hk@yahoo.com